فى حياة الفن

أم كلثـــوم

تأليف الأستاذة نعمات أحمد فؤاد

للأستاذ أحمد عبد اللطيف بدر

الغناء روح النفس ، وروح القلب ، يزيل الشجو بالشدو ، ويمد الآلام بالأنغام، وإذا توائم الصوت المعبر، واللحن المصور، كان التحليق والسمو . ولعل أجل المواهب ما تعاطف « المشاركة الوجدانية » وما تؤالف النزعات الإنسانية ، فالشعر ، والغناء ، والموسيقا، يكمل بعضها بعضا فى موكب الفن الرفيع ، فالموهوبون فى هذه الألوان يتممون المشاعر، ويشاركون الأفئدة فى اتجاهها الوجدانى . والتعبير « فن » قبل أن يكون أداء . وقد أودع الخالق فى الحواس القدرة على التذوق ؛ فالأذن موصلة النغاغم فى تأثر وانعطاف وإشباع ، وهى صادقة الحكم ما دامت تتفاعل معها مثيرات الوجدان ، لذلك عظم شأن التغنى وارتفع قدر اللحن . أليست اللغة فى أول أمرها أصواتاً ؟ أليس التعبير عن الإحساس كان مقاطع ساذجة تدل على الغرض ؟

بلى ، فالصوت أصل أصيل فى قوة التـأثير والتأثر ، و « الأوتار » الواهبة جمال الصوت ثروة إلهية أودعها المبدع الأعظم لتكون نعمة من نعمه الجليلة ! وإن النعمة الممنوحة للشرق المكدود ممثلة فى صوت « أم كلثوم » الذى يسرى من النفوس أوجاعها ، ويسرى فى الحنايا سريان الكهرباء؛ فيؤثر تأثير السحر . . . لقد استمعت إلى الكبد الحرى التى كانت ترسل فى التياع « يا آسى الحى هل فتشت فى كبدى » وكنت فى استهلال صبوتى أجنح بخيالى الصغير إلى عالم روحى بحت ، وعشت فى هذا اللحن أسهنه الأنة فى صدرى ؛ فترسل الزفرة، وتريق العبرة، وأحسست فى أعماقى أن الشادية خالدة ، لأن تعبيرها « فنى » ، لا ترسل الكلمة مرتجلة اكتفاء بالصوت المذب ، والتفريد الأسمر ، فكأنها تترب مايطرب؛ وتراعى مخارج الحروف الدقيقة مراعاة فيها المعجب المجاب. وهذا هو الفرق بينها وبين سواها، وهو عينه ما دعا الأديبة « نعمات أحمد فؤاد » أن تعرض لحياة « أم كلثوم » فى كتاب دقيق ، أنيق ، شائق ، رائع

لقد تميز أسلوب هذا الكتاب بالأصالة التعبيرية الفنية ؛ فليس ثمت حشو ، ولا إملال ولا إصعة. بل توافق، وتساوق، واتساق، فى أناقة شعرية ترف بين السطور فتلمع إلى ذوق الكاتب والكاتبة !

عرضت الأديبة حياة الفتنة المبدعة عرضاً فى صدق وإخلاص ووفاء ، ولهجت بوفاء « أم كلثوم » فى غير موضع مما يدل على نقاء النفس ، وطيب السريرة، وألمت إلى « تحفظها » واستحيائها وانطوائها ؛ ثم انطلاقها ، ومسايرتها ، وانفعالها فى تحفظ وتوقر ، وأناة — وقد استغرق الحديث عن هذه النواحى نصف الكتاب ، ولا غرو فهو تاريخ فنى يستدعى الإفاضة ، والاسترسال ، والإيضاح

* * *

هذا النزوع الفنى من الأديبة دال على تأصل فى الفهم ، وانفعال بالفن ومظاهره، لكنها أهدت الكتاب إلى « قيثارة الله » وهذه الإضافة لا تقع فى نفسى موقع القبول ، وكان فى مقدور الكاتبة أن تهديه إلى « منحة السماء » أو « هبة الخالق » أو ما أشبه التسمية التى تؤدى القصد من دون تحرج ولبس . ولا يقال إن للفن تعبيره الذى لا يتقيد بقيود ؛ فهو متصل بالروح المجرد ، لأن الأديبة قالت فى موضع آخر معبرة عن رأى « أم كلثوم » فى حقيقة الفن « والفنان » فاهمة تعابير « الخيام » أنه : « إذا استشف فاعل الفكر ما وراء الأشياء ، وشرب الخمر شاربها بعقيدة أنها تخلصه من عالم المادة وتساعده على النفاذ والمضى إلى ما وراءها ؛ فهو ليس بآثم فى نظر الفن » ثم تقول فى موضع آخر ص ١٣٠ : « الفنان كالصوفى لا يتحرج من الأشياء تحرجا ظاهرا كتحرج الفقيه؛ بل الخيرية والشرية عنده تتوقف على النية » هذا كلام وقفت عنده لأنه تخريج بعد عن القصد مما يتجه إليه المذهب الصوفى فى أرق مظاهره ؛ فالتصوف يتجرد من المادة ليصل إلى الذات ، وما جاء مشكلا رد إلى الحقائق